الفصل الثامن

السلوكيات الاجتماعية

سلوك المسلم بلا منهج

. . . هنا لا بد من الإشارة، بدءاً، إلى موضوع آخر. عندما ذكرت أن للفن تعبيرات مختلفة، وأن أساليب الشعر، والفكر، والعمل وغير ذلك متنوعة، إنما يكون ذلك بالنظر إلى الفئة التي تتخذ منهجاً محدداً في حياتها. إلا أن أكثر الناس لا منهج لهم من الأساس، فالكثير ممن ينشدون الشعر لايتبعون نهجاً وأسلوباً معَيّناً، بل لايعترفون بالأسلوب أساساً، وكثير من الفنانين هم كذلك (ربما كان منهم التكعيبيون) والكثير من الناس لايتبعون منهجاً في تفكيرهم، ولا منطق لهم، فهم يعتمدون حيناً على النقل، وحيناً آخر على العقل، وحيناً ثالثاً على الحسّ، وأحياناً أخرى على. . . هؤلاء لا منطق لهم ولا شأن لي بهم. وأكثرية الناس لا يتبعون أسلوباً محدداً في سلوكهم، وإذا ما سُئل أحدهم: ما أسلوبك في الحياة؟ وما النهج الذي تسلكه لحل مشكلات الحياة؟ فلا يجيب. ولكل شخص في الحياة هدف معَيّن، وبالطبع تختلف الأهداف، فقد يكون الهدف سامياً، حقاً، إلهياً، دنيوياً، أو غير ذلك، ولكن بعض الناس لايسلكون أسلوباً ونهجاً معَيّناً لتحقيق هدفهم، فهم لم يختاروا نهجاً محدداً، بل قد لا يعترفون بضرورة وجود هذا النهج، بينما القليل من هؤلاء يتبعون في مسيرتهم منهجاً معَيّناً وأسلوباً محدداً، هؤلاء هم الأقلية، أما الأكثرية فهم يسيرون دون نهج وأسلوب، وتهيمن الفوضى على تصرفاتهم، إنهم همج رعاع، فكل الناس يسيرون، ولكن ليس لهم جميعاً منهج ومنطق يحكم مسيرتهم وسلوكياتهم، ولا يؤمنون بمجموعة من الأصول

والمبادئ معياراً لسلوكهم، فالسيرة تعني الأسلوب والمنهج المنطقي الذي يتبعه الإنسان في مسيرته[1].

لماذا الشخصية الانهزامية

قبل نحو سنتين قرأت كتاباً لاحد المثقفين الإيرانيين ذكر فيه أنه عندما كان يعيش في (لندن) حصلت حادثة لطيفة وملفتة للنظر مفادها أنّ بنت سفير بريطانيا السابق في موسكو، وهو بلا شك من الشخصيات المرموقة في المجتمع البريطاني عشقت رجلاً أسودَ ثم تزوجته، الأمر الذي أثار ضجةً كبري في لندن، فكيف يمكن تصور زواج بنت بيضاء من رجل أسود، وهي بنت إحدى الشخصيات المرموقة، حتى تحول الأمر إلى مادة دسمة للصحف اليومية، ولكن إحدى الصحف كتبت تقول: «ولماذا كل هذا العجب وهذه الضجة؟! فالعالم يتجه نحو المساواة، والمجتمعات اليوم تؤمن بفكرة المساواة والإخاء بين الألوان وترفض التمييز العنصري بالإضافة إلى أن ديناً كبيراً من أديان العالم كالإسلام كان قد رفض التمييز بين البشر على أساس الألوان قبل أربعة عشر قرناً مضت!»

ويضيف الكاتب الإيراني أنه صادف في تلك الأيام أن حضر أحد المجالس التي كان يشترك فيها عدد من الإنجليز إلى جانب عدد من الشباب الإيراني المقيم في لندن، ولمّا تطرق الحاضرون إلى هذه القصة وكيف أنّ إحدى الصحف كتبت عن الإسلام وموقفه من المساواة بين الأسود والأبيض قبل أربعة عشر قرناً قام أحد الحاضرين في المجلس وقال: نعم إن دينا قذراً كالإسلام لابد له أن يحمي القذرين (المقصود السود).

ويضيف الكاتب هنا، إنّ اثنين من الشباب الإيراني الحاضر شعرا بخيبة أمل كبيرة وصارا يندبان حظهما ويتساءلان عن سبب انتمائهما إلى مثل هذا الدين الذي يُسبب لهما إحساساً بالانكسار والذل! ثم صارا ينقلان هذه الصورة البائسة! من مجلس إلى مجلس ويصرّحان بأنّ الدين الإسلامي دين

(1) مطهري، سيره نبوى [السيرة النبوية]، ص13 و14.

ساقط لأنه يحمي الأقذار، ويتساءلان كيف لم يستطع الإسلام أن يدرك الفرق بين الأبيض الأسود!

إن هذا يُسمى استلاب الشخصية، فهؤلاء لم يكن لهم أنْ يفكروا كذلك لو كان عندهم ذرة من الاستقلال الفكري، ولو كانوا كذلك لردّوا على صاحب هذا الرأي ردّاً مُحكماً، وأثبتوا له تفاهة حديثه، وتخلُّف عقليته، لأنه ما معنى أن يكون للون والبشرة أي دور في التمايز في فضائل البشر! وأنْ يصبح مثل هذين الشابين مخذولين ومكسورين! إنه مرض استلاب الشخصية فقط، لأنّ هذه الحالة هي التي تخلق الفكرة الزاعمة بأنّ ما يقوله الإفرنج لابد أن يكون صحيحاً![2].

الإسلام: دين العبادات الفردية أم الشؤون الاجتماعية؟

هناك فئة تقول إن مقولة «الصلاة عمود الدين» لاتنسجم مع التعاليم الإسلامية، فالإسلام يركز اهتمامه قبل كل شيء على القضايا الاجتماعية، الإسلام دين العدل والاحسان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: 92] الإسلام دين القسط: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: 25]. الإسلام دين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110] الإسلام دين النشاط والعمل، الإسلام دين عظيم، فالدين الذي يركز اهتمامه إلى هذه الدرجة على القضايا الاجتماعية، كيف يمكن أن يهتم إلى هذا الحد بالعبادات [ويعتبر الصلاة عمود الدين]؟ كلا، فالعبادات لا تحظى بالأهمية الكبيرة في عالَم الإسلام، عليك بالتعاليم الأخلاقية للإسلام، عليك بالتعاليم الاجتماعية، فالعبادة من اهتمامات العاطلين، فالذين لا تشغلهم أعمال أهم يتجهون نحو الصلاة والعبادة، أما الذين تملأ أوقاتهم أعمال أهم فلا ضرورة للعبادة حينئذٍ!

---

(2) مطهري، حماسه حسينى، [الملحمة الحسينية]، ص165-167.

إن هذا التفكير خاطئ وخطير جدّاً. علينا أن نعرف الإسلام كما هو. وإنني إنما أُشير إلى هذه المسألة، لأنني أشعر بأنها أصبحت حالة مرضية منتشرة في مجتمعنا. فأصحاب التوجهات الإسلامية في مجتمعنا ينقسمون ـ وللأسف الشديد ـ (أكثرهم بالطبع وليس جميعهم) إلى فئتين:

فئة تفكر كالربيع بن الحصين، فالإسلام عند هؤلاء عبارة عن: الذكر والدعاء والنوافل وزيارة المراقد الشريفة وإحياء مراسم عاشوراء. الإسلام عند هؤلاء يعني كتاب (مفاتيح الجنان) وكتاب (زاد المعاد)(3)، فكل الإسلام ـ حسب هؤلاء ـ يتلخص في كتاب (المفاتيح) ولا وجود لشيء آخر أساساً. إنهم يفكرون تماماً مثل الربيع بن الحصين، فلا شأن لهم بالدنيا، وبمتطلبات الحياة، وبالتعاليم الاجتماعية للإسلام، كما لا شأن لهم بأركان الإسلام وأصوله، ولا بالتربية الإسلامية، ولا بأي شيء آخر.

وفئة أخرى متطرفة، هي ردّ فعل لهذا التوجه المحافظ، تصب جُلَّ اهتمامها على القضايا الاجتماعية للإسلام وتبدي نشاطاً في هذا المجال. ولهم مكانتهم في المجتمع، إلا أنني شاهدت بعضاً منهم وقد استطاع للحج سبيلاً ولكنه لم يؤد هذه الفريضة، فالشخص المسلم حقيقةً، والراغب في الإسلام حقاً، والذي ينبض قلبه من أجل الإسلام، لا يتأخر عن أداء فريضة الحج إذا استطاع إليه سبيلاً إلا أن يكون الأمر عنده ليس مهماً، كما أن بعضهم لا يهتمون بصلاتهم ولا يهتمون بالتقليد في الأحكام الشرعية، رغم أن التقليد الديني أمر معقول... وبعضهم لايهتمون بالصوم فإذا سافروا وأفطروا في السفر فإنهم لايقضونه بعد ذلك.

إن هؤلاء يُعدُّون أنفسهم مسلمين تماماً. كما أن الفئة الاولى يُعدُّون أنفسهم مسلمين تماماً أيضاً، بينما واقع الأمر هو أنه لا هؤلاء ولا أولئك كَمُل إسلامهم ـ فالإسلام دين متكامل لاينسجم مع ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ

---

(3) كتابان من كتب الادعية والاذكار والزيارات مشهوران عند الشيعة، وأشهرهما عند عامة الناس (مفاتيح الجنان). (المترجم).

بِبَعۡضٍ﴾. فلا يصح الالتزام بعبادات الإسلام والتخلي عن أخلاقياته وقضاياه الاجتماعية وفريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما لايصح من الجهة الأخرى التمسك بواجبي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك العبادات، فالقرآن الكريم كلما قال: «أقيموا الصلاة» أتبعها بقوله: «وآتوا الزكاة». وإذا قال «أقام الصلاة» قال أيضاً: «آتى الزكاة». وإذا ما قال: «يقيمون الصلاة» أتبعها بـ «يؤتون الزكاة». فإقامة الصلاة ترتبط بالعلاقة بين العبد وربه، بينما إيتاء الزكاة ترتبط بالعلاقة بين العبد وسائر عباد الله. فالشخص المسلم يجب أن يقيم ـ من جهة ـ علاقة مستمرة وثابتة بينه وبين ربه، وأن يقيم ـ من جهة أُخرى ـ علاقة مستمرة وثابتة بينه وبين مجتمعه. فبدون العبادة، وبدون ذكر الله عزوجل، وبدون تذكّر الله، وبدون مناجاة الله، وبدون حضور القلب، وبدون الصلاة، وبدون الصوم، بدون ذلك كله لايمكن بناء مجتمع اسلامي سليم بل حتى الإنسان نفسه ـ كفرد ـ لايستطيع الحفاظ على سلامة نفسه. وكذلك من جهة أخرى لايمكن للمسلم أن يكون عابداً لله بدون وجود مجتمع صالح، وبدون بيئة سليمة، وبدون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدون التضامن والتعاطف والتراحم بين أبناء المجتمع الإسلامي[4].

نظرة المجتمع للمصلحين

هل فكرتم في هذه المسألة: إننا نلحظ في التاريخ الإسلامي شخصيات بارزة في كل طبقة اجتماعية، فهناك أُدباء كبار، وحكماء كبار، وفقهاء كبار، وشعراء كبار، ووعاظ وخطباء كبار، وكُتّاب ومؤلفون كبار، ومنجمون كبار، وعلماء كبار في الرياضيات، وسياسيون كبار وصناعيون وفنانون كبار، إلا أننا لانجد المصلحين الكبار؟. فنحن فقراء في هذا المجال. طبعاً هناك بعض المصلحين الذين ظهروا فيما بيننا، إلا أنهم لم يكونوا كما هو المتوقع، وذلك رغم أن الإسلام يحتوي على فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن شأن هاتين الفريضتين أن تؤديان إلى ظهور الكثير من المصلحين، بالطبع

(4) مطهري، گفتارهاي معنوي [المقالات الروحية]، ص60-63.

نحن لا نتوقع أن يكون عدد المصلحين الدينيين والاجتماعيين بعدد ما نملك من الأدباء أو الفلاسفة أو الفقهاء أو المنجمين أو علماء الرياضيات مثلاً، فالمصلح بحاجة إلى درجة عالية من النبوغ والشخصية ودقة الرأي والنظرة المستقبلية والتفاني والتضحية، ولاشك أن هذه النوعيات نادرة وقليلة، ولكن رغم ذلك إنني أعتقد أن عدد المصلحين كان أقل بالمقارنة مع النسبة المطلوبة، لماذا؟ هذا تساؤل لا أستطيع الآن أن أُجيب عليه.

لم يكن في تاريخنا مصلحون بالقدر المطلوب، كما أننا قلما نسمع كلاماً عن الإصلاح وأهميته، وأساساً، إن مجتمعنا لايعتقد بأن الإصلاح أمر مهم، وأنه شأن يليق بالرجال العظام، فلو قيل لنا بأن الإمام علي عليه السلام، أو أن سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام كان رجلاً حكيماً، فالجميع يتفهم معنى هذه الكلمة ويعتبرها مديحاً لهذا الامام، وكذلك الأمر لو قيل عنه بأنه كان رجلاً فقيهاً عارفاً بالأحكام الشرعية، أو قيل بأنه كان رجلاً خطيباً فصيحاً بليغاً. أما لو قيل بأنه كان مصلحاً فاننا لانفهم معنىً لهذه الكلمة، ولا تحظى الكلمة بأية أهمية في رأينا، بينما الاصلاح هو أهم من كل الشؤون الأخرى، وأن الإمامين علي والحسين قد اختارا لأنفسهما هذه الصفة وهذه التسمية.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا مُنافسة في سلطان، ولا إلتماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونُظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتُقام المعطلة من حدودك».

وعند الخروج متوجهاً إلى الكوفة كتب الإمام الحسين عليه السلام في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية:

«إني لم أخرج أشِراً ولا بَطراً ولامُفسداً ولا ظالماً، إنما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي»[5].

بين الخدمة الاجتماعية والاصلاح الاجتماعي

لابد من الإشارة إلى نقطة هامة وهي أن عصرنا الحاضر يشهد اهتماماً إيجابياً ومباركاً بالإصلاحات الاجتماعية، وهو أمر جدير بالتقدير، إلا أننا نلاحظ أحياناً بعض التطرف في هذا المجال وهو أن هناك من لا يعتبر قيمة أية خدمة غير الإصلاح الاجتماعي، فكل خدمة تُقاس بمعيار الإصلاح، وتكتسب كل شخصية قيمتها من حجم مشاركتها في الإصلاحات الاجتماعية. ويبدو أن هذا المنهج الفكري خاطئ وغير صحيح، ذلك لأنه بالرغم من أن الإصلاح الاجتماعي خدمة للمجتمع، إلا أنه ليست كل خدمة هي بالضرورة إصلاح اجتماعي، فاكتشاف علاج مرض السل أو السرطان خدمة إلا أنه ليس إصلاحاً، وتطوير العلوم خدمة إلا أنه ليس إصلاحاً، وكل طبيب يعكف على معالجة المرضى طوال ساعات عمله إنما يقدم خدمة اجتماعية ولكنه لا يقوم بإصلاح اجتماعي، ذلك لأن الإصلاح الاجتماعي يعني إيجاد التغيير الاجتماعي في الاتجاه المطلوب، وعمل الطبيب ليس كذلك.

من هنا لا يجوز لنا أن نتجاهل أهمية الذين يقدمون خدمات كبيرة للمجتمع أو تجهل قيمتهم، بذريعة أن هؤلاء لم يكن لهم أي دور في الإصلاح الاجتماعي، فعمل الشيخ مرتضى الأنصاري [وهو من كبار الفقهاء] وصدر المتألهين [وهو من كبار الفلاسفة] خدمة كبيرة جدّاً، بينما لم يكن عملهما إصلاحاً، كما لا يُعدّان من المصلحين. أو أن تفسير «مجمع البيان» مثلاً الذي كان خلال تسعة قرون ولا يزال مرجعاً للآلاف من الأشخاص، يُعتبر خدمة للمجتمع إلا أنه لا يُعد إصلاحاً اجتماعياً، فهو عمل أنجزه عالم كبير في العزلة، وكم هناك من الأفراد الذين قدموا خدمة للمجتمع من خلال تقواهم الشخصي وكونهم أصبحوا قدوات صالحة للناس، في الوقت الذي لم يتدخلوا عملياً في الشؤون الاجتماعية.

(5) مطهري، ده گفتار [المقالات العشرة]، ص73-75.

إذن، فالصالحون كما المصلحون يحظون بأهمية وقيمة عالية إذ أنهم قدموا خدمات للمجتمع رغم أنهم لايُعدون من المصلحين(6).

هل الأكثرية معيار للحق؟

كما يتصف الإنسان بحبه لاتّباع السابقين، كذلك عندما يواجه الجماعة والعدد الكبير يحاول أن يتلون بلونهم. يقول المثل [الإيراني] : «لكي تتجنب الفضيحة تلوَّن بلون الجماعة». ولكن حينما تكون الجماعة مفضوحة فإن التلوّن بلونها يؤدي إلى فضيحة أكبر. إلا أن رغبة الإنسان كبيرة في أن يضفي على نفسه صبغة الجماعة. ونلمس هذه الحالة عند الفقهاء كثيراً، فعندما يستنبط الفقيه حكم قضية ما، لايجرؤ على إعلان رأيه، بل يبحث هنا وهناك علّه يجد بين فقهاء عصره من يوافقه الرأي في المسألة المعينة، ويندر جدّاً أن يعلن الفقيه عن رأيه المستنبط إنْ لم يجد أحداً يتفق معه في رأيه، كل هذا يعني أنه يشعر بالوحشة عندما يجد نفسه وحيداً في الطريق، وكذلك الأمر في سائر المجالات، رغم انك قد تجد الفردية الآن أصبحت تقليعة عصرية، حيث يسعى كل شخص أن يظهر بمظهر خاص كي يُقال عنه أنه يحمل فكراً جديداً، تماماً على العكس من القدماء، فالقدماء حتى ولو كانت لهم آراء خاصة فانهم كانوا يتجنبون الاعلان عنها على انفراد، بل كانوا يوحون للمجتمع بأن الآخرين يتفقون معهم في الرأي أيضاً لكي لاتبقي آراؤهم فردية. فابن سينا يقول بصراحة بأنه كان يطرح آراءه على لسان أرسطو، لأنها كانت تُرفض في حال عرضها على أنها آراؤه الخاصة. وملا صدرا يسعى دائماً للاستشهاد بكلمات القدماء لدعم نظرياته وتفسيرها، ذلك لأن التناغم مع الجمع كان هو السائد في العصور السالفة، بينما الان العكس هو السائد، فلو ارتأى شخص رأياً قد قال به غيره فإنه يكون عديم القيمة.

ولكن، وعلى كل حال، فإن القرآن الكريم يذم الكثرة، إذ لايعتبر الكثرة معياراً، لنقرأ معاً :

---

(6) مطهري، نهضتهاى اسلامى صد ساله أخير [الحركات الإسلامية في القرن الاخير]، ص8-9.

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116].

فالقرآن ينهى عن اتباع أكثر الناس، لأنهم لايتبعون سبيل العقل بل يتبعون الظن والخرص، وهذا دعوة إلى استقلالية العقل، وإلى ضرورة اعتبار العقل هو المعيار(7).

أسس العلاقات الاجتماعية في الإسلام

... نحن المسلمين نغض أبصارنا عن حقائق الحياة ثم نتساءل باستمرار: لماذا نحن متخلفون إلى هذه الدرجة؟ لماذا نحن المسلمين أذلّاء؟ ونتصور أننا لمجرد التزامنا بالآذان والإقامة والصلاة قد أصبحنا مسلمين تماماً، إننا نشهد الشهادتين، إذن فنحن مسلمون كاملو الإيمان، بينما توجد في الإسلام تعليمات أخرى أيضاً، ومن أهم التعاليم الإسلامية هو الأمر ببناء العلاقات الاجتماعية الخاصة فيما بين المسلمين أنفسهم [تلك العلاقات التي تتحدث عنها الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ...﴾ [الأنفال: 72] ثم يقول في الآية التالية: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: 73]. أجل، نحن لم نفعل فتدهورت أوضاعنا. وهذا واضح جدّاً؛ فنحن المسلمين ينشط بعضنا ضد البعض الآخر أكثر مما ينشط أعداؤنا ضدنا. وكمثال، فإن احد الأشخاص كان يقول: لا يختلف عندي أن يقتل الفلسطينيون الإسرائيليين، أو يقتل الإسرائيليون الفلسطينيين! إننا ـ من جهة نستمع إلى القرآن الكريم يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: 74]. ولكن البعض ـ من جهة أخرى ـ يقول بأنه لا يختلف عنده أن يقتل الإسرائيليون ـ وهم ألدّ الخصام وأخطر أعداء المسلمين ـ الفلسطينيين، أو يقتلهم الفلسطينيون، ومع هذه الافكار نريد أن نكون أمة سعيدة. عندما سمعت هذا الكلام تذكرتُ حديثاً شريفاً جاء في تفسير الإمام

(7) مطهري، تعليم وتربيت اسلام [التعليم والتربية الإسلامية]، ص193-194.

العسكري، حيث يتحدث الإمام عن أشباه العلماء في آخر الزمان، يقول عنهم: «هم أضرّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد على الحسين بن علي عليه السلام وأصحابه» والأمر كذلك فعلاً[8].

التقريب بين المذاهب وحدة مذهبية، أم جبهة متحدة؟

... لاشك أن حاجة المسلمين إلى الاتحاد والاتفاق لمن أمسّ الحاجات اليوم، وأنَّ المعاناة الأساسية للعالم الإسلامي هو هذه الأحقاد العتيقة بين المسلمين، والتي يستغلها العدو على الدوام، ولكن ما مفهوم الاتحاد الإسلامي؟

ان الاتحاد الإسلامي، الذي رفع لواءه خلال القرن الأخير عدد من العلماء والفضلاء المؤمنين والمتنورين الإسلاميين، لايعني أن تتنازل المذاهب الإسلامية ـ من أجل تحقيق الوحدة ـ عن أصولها العقائدية أو غير الاعتقادية، أو بعبارة أخرى لايعني أن يأخذ المسلمون بمشتركات كل المذاهب ويدعوا جانباً مختصات كل المذاهب، ذلك لأن هذا العمل لاهو منطقي ولا هو عملي.

فكيف يمكن أن نطلب من معتنقي مذهب ما، ولاجل مصلحة حفظ الوحدة بين المسلمين، أن يتخلوا عن أصل اعتقادي معَيّن أو حكم شرعي خاص بينما هم يعتبرون ذلك الأصل أو الحكم جزءً من الإسلام؟ وهذا بمثابة أن نطالبهم بالتخلي عن جزء من الإسلام باسم الإسلام.

إن إلزام الناس بأصل مذهبي أو إبعادهم عنه، له أساليب أخرى، وأكثرها طبيعية هو المنطق والبرهان، فعن طريق الطلب والرجاء وباسم المصلحة لايمكن أن نجعل جماعة تؤمن بشيء ما، كما لايمكن أن نسلب منهم ايمانهم.

فنحن شيعة أهل البيت ونفخر بأننا نتبع مذهب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(8) مطهري، آشنایی با قرآن [التعرف على القرآن]، ج2، ص201 و202.

ولا نعتبر أصغر حكم من أحكام الشريعة حتى المستحب والمكروه يمكن أن يُضحّى به من أجل الوحدة، فإننا لا نستجيب لتوقعات الآخرين في هذا المجال، كما لا نتوقع من الآخرين أن يتخلوا عن أصل من أصولهم باسم المصلحة ومن أجل الاتحاد الإسلامي. إن ما نتوقعه ونأمله هو خلق أجواء التفاهم الإيجابية التي تسمح لنا، كشيعة لنا أصولنا وفروعنا، ولنا الفقه والحديث والكلام والفلسفة والتفسير والآداب الخاصة بنا، أن نعرض على الآخرين ما نملك، لكي لا يبقي الشيعة في عزلة، وتبقى أسواق العالم الإسلامي مغلقة في وجه المعارف الإسلامية القيّمة الموجودة لدينا.

إن الأخذ بالمشتركات الإسلامية، وطرد مختصات كل مذهب هو نوع من خرق الإجماع المركب، ونتيجة ذلك سيكون حتماً شيئاً غير الإسلام الواقعي، ذلك لانه لا شك في أن مختصات أحد المذاهب على الأقل جزء من الإسلام، ولا وجود لإسلام دون جميع هذه المميزات والمختصات.

ثم إن الذين رفعوا راية الاتحاد الإسلامي في عصرنا الحاضر، كالمرجع الفقيه البروجردي من جهة الشيعة، وكالعلامة الشيخ عبدالمجيّد سليم والعلامة الشيخ محمود شلتوت من جهة أهل السنة، لم يكونوا يهدفون إلى هذا المفهوم. بل كان مشروعهم يهدف إلى أن باستطاعة المذاهب الإسلامية، إلى جانب الحفاظ على نقاط الاختلاف الفقهية والكلامية وغيرها، ومن خلال المشتركات المتوفرة فيما بينهم أن يتعاضدوا يداً بيد ويبنوا جبهة واحدة متآخية. إن هؤلاء العظام لم يكونوا يهدفون أبداً إلى ايجاد وحدة مذهبية تحت شعار الوحدة الإسلامية، التي ليست عملية بأي حال من الاحوال[9].

المسلم وثقافة العمل

جاء في الحديث الشريف: «إن الله يحب المؤمن المحترف» فالله عز وجل يحب المؤمن إذا كان يشتغل بمهنة شريفة، كما جاء في الحديث أيضاً:

(9) مطهري، امامت، [الامامة]، ص16-18.

«الكادّ لعياله كالمجاهد في سبيل الله»، وجاء في الحديث النبوي الشريف: «ملعون مَنْ ألقى كَلّهُ على الناس»، وجاء في «بحار الانوار» وبعض كتب الحديث الأخرى أنه اذا ذُكر شخص بحضور رسول الله ﷺ، كان الرسول يتساءل عن عمله، فإذا قيل: لا عمل له، قال الرسول ﷺ: «سقط من عيني». وهناك الكثير من الروايات الأخرى حول هذا الموضوع نُقلت عن النبيّ ﷺ وأئمة أهل البيت. وتدل كلها على مدى أهمية العمل وقداسته في الإسلام، وهذا تماماً على العكس مما يراه بعض المتصوّفة والمتزهدين، وعلى العكس مما هو راسخ في عقول بعضنا حيث يرى العمل أمراً سليماً للمساكين والمضطرين فقط، فاذا رأوا شخصاً منهمكاً في العمل قالوا عنه إنه مسكين ومحتاج ومضطر للعمل، أي أن ما يعتبر مقدساً عند هؤلاء هو البطالة، فيقولون: هنيئاً لمن لا يكون مضطراً إلى العمل. بينما مسألة العمل أساساً لا ترتبط بالحاجة أو عدمها.

فالعمل - أولاً - وظيفة ومسؤولية. فالحديث القائل: «ملعون من ألقى كَلَّه على الناس» يضع العمل ضمن إطار الوظائف الاجتماعية، فللمجتمع حق على الإنسان، إذ أن ما يستهلكه الفرد إنما هو حصيلة عمل الآخرين... فإن لم تكن قيمة كل شيء ترتبط بالعمل تماماً، فإن بعض القيمة - على الأقل - تعود إلى العمل الذي أُنجز من أجله، فالثياب التي نرتديها، والغذاء الذي نأكله، والحذاء الذي نلبسه، حتى البيت الذي نسكن فيه، وكل ماهو حولنا إنما هو نتيجة عمل الآخرين. والكتاب الذي بين يديك هو حصيلة عمل الآخرين، بدءً بالتأليف ومروراً بصناعة الورق وانتهاءً بالطباعة والتجليد، كل ذلك حصيلة أعمال الآخرين. فالإنسان الذي يعيش في وسط اجتماعي غارق في نتائج أعمال غيره من أبناء هذا المجتمع، فإذا كان هذا الإنسان يتهرب من مسؤولية العمل، فإن الحديث النبوي ينطبق عليه، فهو ملعون لأنه يُلقي بكَلّه وثقله على المجتمع دون أن يتحمل هو شيئاً من هذا الثقل. إذن لا مجال للشك في أن العمل وظيفة وواجب، ولكننا نبحث هنا عن تأثيرات العمل التربوية.

هل العمل وظيفة الإنسان بسبب الضرورات الاجتماعية؟ أي هل يبقى

العمل لازماً ووظيفة حتى ولو لم تكن هناك ضرورة اجتماعية تستدعي العمل؟ هل العمل ضروري للإنسان من أجل بناء شخصيته؟

ان الإنسان كائن ذو أبعاد مختلفة، فالإنسان له جسم، كما يتمتع بقدرة ذهنية، وله عقل، وله قلب، . . . والعمل ضروري لجسم الإنسان كما هو ضروري لقدراته الذهنية، ولعقله وفكره، وضروري أيضاً لقلبه وعواطفه وأحاسيسه.

اما ضرورة العمل للجسم فلا يحتاج لتوضيح كثير ذلك لأنه أمر محسوس، فلو لم يعمل الإنسان فإن بدنه يمرض، وهذا ما يؤيده الأطباء أيضاً، فالعمل هو في الحقيقة أحد عوامل الوقاية من المرض وحفظ السلامة الجسدية.

ومن جهة أخرى يتمتع الإنسان بقوة ذهنية وخيالية، فإذا كان الإنسان يفكر في أمور كلية بشكل منظم ويحصل عبر المقدمات على نتائج معَيّنة، فإن هذا هو التفكير والتعقّل، أما لو تُرك ذهن الإنسان دون نظام معَيّن، وأراد أن يستنتج ويكتشف العلاقة المنطقية بين القضايا المختلفة، فإن ذهن الإنسان يُصاب بعارض مرضي بسبب قفزاته من هنا وهناك، فلو لم يسيطر الإنسان على ذهنه ويتحكم به فإنه يؤدي إلى فساده، اي ان الإنسان يحتاج إلى تركيز قوته الذهنية الخيالية، فلو ظلت قوة الخيال حرة دون كبح فإنها تؤدي إلى فساد الاخلاق. جاء في حديث شريف عن الإمام علي عليه السلام: «النفس إن لم تشغلها شغلتك». ففي الحياة أشياء إن لم تشغلها لاتؤدي إلى أية نتيجة، كالجمادات، فإن الخاتَم المصنوع أساساً للبس في الاصبع، إن تركته جانباً دون استخدام فإنه لايؤدي إلى أية نتيجة، بينما نفس الإنسان ليست كذلك، فلابد أن تُشغلها على الدوام، أي أن يكون هناك عمل واهتمامات تستقطب النفس وتشغلها، أما إذا تُركت النفس وشأنها فانها هي التي تُشغل الإنسان بما لا يُصلحه، فالفراغ يفتح الابواب أمام ذهن الإنسان الذي يبدأ بالتحليق في عالم الخيال وهو على الفراش، وعندما يكون في السوق، وهكذا تتجمع الخيالات واحدة فوق الأخرى، وتؤدي هذه الخيالات غير المركّزة إلى سقوط الإنسان في المعاصي. أما إذا كان الإنسان مهتماً بعمل معَيّن فإن العمل

يستقطب كل قوى الإنسان، فلا يبقى مجال للأفكار والخيالات الباطلة(10).

حرية العقيدة أم حرية الفكر

تفخر فئة [من الإيرانيين] بماضيهم من خلال القول: إننا طبقنا مضمون الاعلان العالمي لحقوق الإنسان قبل 25 قرناً من الزمن، وذلك حينما دخل قورش بابل فاتحاً وأعلن عن احترام المعابد الوثنية بالرغم من أنه لم يكن وثنياً بل كان تابعاً لدين الزرادشت، إذن فنحن أمة تؤمن بحرية العقيدة.

إن هذا الزعم من أكبر الأخطاء، ذلك أنه من الوجهة السياسية على الفاتح أن يحترم عقائد الآخرين، حتى لو كان يريد استعبادهم، ناهيك عن أن هذا الأمر خطأ ومرفوض من الوجهة الإنسانية.

فالموقف الصحيح هو موقف النبيّ إبراهيم عليه السلام الذي كان لوحده يحمل فكراً متحرراً، بينما كان يرى الناس جميعم يرسفون في سلاسل العقائد السخيفة والتقليدية التي لم تكن تملك أقل قدر من الفكر والتعقل. ويخرج الناس من المدينة احتفالاً بالعيد، ولكنه لا يخرج معهم متذرعاً بالمرض، وعندما تخلو المدينة يدخل معبد الأوثان الكبير، ويحطم الاصنام كلها بالفأس إلا الصنم الكبير فيعلّق الفأس على عاتقه، وتعمّد ذلك لكي يحرر عقول الناس وأفكارهم، كما يشير القرآن الكريم. وعندما عاد الناس ليلاً إلى المدينة، ووجدوا الدمار في المعبد، وكان الوضع يوحي وكأن الأصنام اقتتلت فيما بينها فقُتلت جميعها إلا الصنم الكبير. فقالوا: من الذي فعل هذا بآلهتنا؟ فبفطرتهم أدركوا أن هذا الدمار لا يمكن أن يكون من فعل الاصنام التي لا روح لها، إذن فهو من عمل موجود عاقل، لذلك قالوا: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾. فأحضروا إبراهيم الذي كان يذكر آلهتم بسوء واستجوبوه: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ ۞ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 62-63]. فوسيلة الجريمة معلقة على عاتق الوثن الكبير، إذن لماذا تتهمونني بذلك. فاسألوهم إن كانوا ينطقون

---

(10) مطهري، تعليم وتربيت در اسلام [التعليم والتربية الإسلامية]، ص258-262.

ويجيبون. ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنبياء: 64] إن خطة إبراهيم أثارتهم وأعادتهم إلى أنفسهم لكي يفكروا ويكتشفوا صدق كلام إبراهيم، إن عمل النبيّ إبراهيم هذا أدى إلى أن يرجع القوم إلى أنفسهم ويحرروا أفكارهم من سلاسل العقيدة الخرافية. هذا هو نموذج العمل الإنساني.

والنبيّ موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الآخر، قام بعمل إنساني حينما وجد قومه قد اتخذوا عجل السامري إلهاً يعبدونه من دون الله، فقال: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾. ذلك لأنه لو كان يُبقي على العجل، ماذا كانت النتيجة؟ لم تكن غير تكبيل الناس بقيود خرافة جديدة. ونتساءل: حينما اتجه قوم موسى لعبادة العجل، هل كان فكرهم الحر هو الذي ساقهم إلى ذلك؟ أم أنهم حينما خرجوا من اليم وانقذهم الله من فرعون فوجدوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد رأوا عبادة الاصنام، فأعجبهم ذلك، وطالبوا نبيّهم بإله مماثل: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾؟

وهناك نموذج إنساني سليم في عمل خاتم الأنبيّاء محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حيث ناضل لسنوات طويلة ضد عقيدة عبادة الأصنام حتى استطاع تحرير أفكار الناس وعقولهم، فلو كان عرب الجاهلية قد استمروا دون رسولٍ يهديهم لكانوا حتى بعد ألف عام لايزالون يعبدون الأوثان (كما نشاهد الوثنية إلى الان حتى في بعض الشعوب المتحضرة مثل اليابان) ولما كانوا قد تقدموا في حياتهم قيد أنملة. ولكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جاء وقطّع سلاسل العقيدة الباطلة من أرجلهم وأيديهم، وحرر أفكارهم: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: 157]. فالإسلام يطلق كلمة الإصر والقيد على ما يقول الاوروبيون بضرورة ترك الإنسان حراً فيه، فيأمرنا بأن نشكر الله الذي وضع عنا الإصر والأغلال والخرافات بواسطة نبيّه الكريم.

وفي معركة بدر جاء المسلمون بعد الانتصار بمجموعة من الأسرى موثوقي الأيدي، فنظر اليهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وتبسم، فقال الأسرى إنهم لم يكونوا يتوقعون من الرسول أن يشمت بهم، فأجابهم الرسول بأنه لا يشمت بهم، ولكنه يرى أن عليه أن يسوقهم إلى الجنة بواسطة هذه القيود والسلاسل، وأن عليه أن يحررهم من عقائدهم الباطلة بالقوة.

وعلى هذا الأساس، فإن هناك فارقاً بين حرية الفكر وحرية العقيدة، فإذا كان الاعتقاد قائماً على أساس التفكير والتعقل فإن الإسلام يقبل بهذه العقيدة، أما خلاف ذلك فالإسلام لايقبل بأية عقيدة. فحرية العقيدة هنا تعني حرية الفكر. أما العقائد الموروثة من الآباء والقائمة على أساس التقليد والجهل، وعدم التفكير، والاستسلام للعوامل المضادّة للفكر، فإن الإسلام لايقبل بها في إطار حرية العقيدة[11].

قيود العادات والتقاليد

لا يجوز للإنسان أن يظل أسير العادات والتقاليد، وللأسف الشديد فإن العادات الاجتماعية تشيع بين النساء أكثر مما هي بين الرجال، ففي الوفاة هناك عادات وتقاليد لليوم الثالث، والسابع، والأربعين ينبغي الالتزام بها. وفي الاعراس هناك عادات وتقاليد مختلفة أيضاً. وعندما نسألهم عن ضرورة ذلك يقولون: هذه عادات وتقاليد، ولايمكن التخلي عنها، دون أن يعرفوا شيئاً عن مضامينها وفلسفتها. وهذا السلوك يعني الحقارة والذلة والمسكنة، فالإنسان لايجوز له أن يكون أسيراً للعادات والتقاليد إلى هذه الدرجة، بل يجب أن يكون الإنسان تابعاً للمنطق والعقل. بالطبع لاينبغي ان يكون الإنسان مثل بعض العصريين ايضاً الذين يتجاوزون كل السنن والاعراف التقليدية ويعارضون كل ماهو تقليدي. كلا، فإنني لا أعارض كل ما هو تقليدي، بل إنني أوافق مع كل شيء منطقي وعقلاني، وأخالف كل ما لا يكون مدعوماً بالمنطق والعقل[12].

الإنسان وعقدة الحقارة

كان رسول الله ﷺ يرتدي الملابس البسيطة، ولكنه كان في الوقت نفسه يلتزم بقواعد النظافة والطهارة، ولم يكن يغادر المُنزّل كل صباح قبل ان يرتِّب ثيابه وشعره وينظف وجهه ويديه وينظر إلى نفسه في المرآة، فهو لم

(11) مطهري، پيرامون جمهوري اسلامي [حول الجمهورية الإسلامية]، ص101-104.
(12) مطهري، گفتارهاي معنوي [المقالات الروحية]، ص292 و293.

يكن مهملاً لقواعد النظافة كما لم يكن متصنّعاً في ذلك بحيث يقضي فترة طويلة من وقته الغالي في التكلّف والتصنّع. ولكن الناس بين الافراط والتفريط في هذا المجال، فهناك فئة تهمل كل القيود والحدود بحيث تصبح دون إلتزام بأية قيمة، وبالتالي يكون الكسل والبطالة شعارها؛ وعلى العكس هناك فئة أخرى تحبس نفسها في شرنقة ضيقة من العادات والتقاليد والآداب الاجتماعية، فلها آلاف القيود في المأكل، وآلاف القيود في الملبس، وآلاف القيود للعلاقات الاجتماعية، والضيافات، والاعراس، والأسفار، بحيث تثقل الحياة وتجعل المعيشة شاقة؛ فهؤلاء يقضون ساعات طويلة لتزويق انفسهم قبل أن يغادروا المُنزّل، ثم يخطون خطواتهم بمزيد من الحذر والاحتياط وكأنهم موجودات ورقية أو زجاجية خشية أن تنهار كل تلك القيود المفتعلة، فحديثهم مفتعل، ومشيتهم مصطنعة، وملبسهم متكلّف، وضيافتهم متكلّفة، وقيامهم وقعودهم متصنّع، وبالتالي فإن حياة هذه الفئة من الناس كلها تكلّف وتَصنُّع.

إن رسول الله ﷺ لم يكن يسمح لأن يكون لمجلسه صدر وذيل، وأعلى وأسفل، خاصة وأنه كان يأمر أصحابه بأن يجلسوا في حلقة حتى لا يكون للمجلس نقطة متميزة، ونقرأ في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [المجادلة: 11] أي لاتتقيدوا بالجلوس في نقطة معيّنة.

إن التقيّد بحياة متكلّفة ناجم عن ضآلة الروح وانعدام الشخصية المتزنة. فبعض الأشخاص قد يشعر بالحقارة في نفسه، وهو يحاول التعويض عن هذا الشعور بالحقارة، باصطناع شخصية مزيفة في عيون الآخرين، ولذلك فهم يقومون بالتظاهر بمجموعة من القيود المصطنعة، فالرجل العالِم لايحتاج إلى التظاهر والتكلّف، لأن درجته العلمية هي خير شاهد على شخصيته، بينما على العكس من هؤلاء، اؤلئك الذين يشعرون بالتخلف من هذه الجهة فهم يهتمون بالألقاب والأسماء والظواهر.

وبشكل عام، فإن العمل والنشاط والايجابية في الحياة لاتنسجم مع

التكلّف والمظهرية والتقيّد المبالغ بالعادات والتقاليد. فكل واحد من هذه القيود يبتلع مقداراً كبيراً من الوقت، والفكر، والطاقة ويؤدي إلى الملل والتعب. فمن يريد التقدم في الحياة عن طريق العمل والحركة والنشاط، عليه أن يتخلّص من ثقل التكلّف والقيود المصطنعة حتى يستطيع أن يحث السير ويتقدم[13].

الرؤية السلبية أو الايجابية تجاه الآخرين

إن أحد الأسباب الرئيسية لعدم نجاحنا في الاصلاح الاجتماعي هو أن الواحد منا عند ما ينظر إلى نفسه وإلى أعماله فإنه ينظر إليها نظرة إيجابية متفائلة، أما عندما ينظر إلى الآخرين وأعمالهم فإنه ينظر إليهم نظرة سلبية متشائمة، وتكون النتيجة أن لا أحد منا يرى نفسه مقصِّراً، بل يرى الآخرين هم المقصِّرون. فالكل ينتظر تحقق العدالة الاجتماعية ولكن لا أحد يفكر بأن العدالة الاجتماعية إنما تتحقق إذا كان كل فرد من أبناء المجتمع عادلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135][14].

التقيّة والانسحاب من المواجهة

توجد في الفكر الشيعي فكرة معقولة يؤيدها القرآن والعقل، وهي فكرة «التقية». والتقية عبارة عن استخدام التكتيكات المعقولة في النضال من أجل المحافظة على قدر أكبر من الطاقات والأفراد.

وواضح أن كل فرد يناضل في جبهة من الجبهات يُعتبر طاقة مهمة سواء من جهة روحه وحياته، أو من جهة امكاناته الاقتصادية أو من جهة شخصيته الاجتماعية، ولابد من بذل أقصى المحاولات للحفاظ على هذه الطاقات،

(13) مطهري، حكمتها واندرزها، [الحِكم والمواعظ]، ص102 و103.
(14) مطهري، بيست گفتار [عشرون مقالة]، ص239 و240.

فلماذا تُهدر الطاقات دون سبب؟ ولماذا تضعف الامكانات دون سبب؟ بل لابد أن تبقى الجبهة قوية ورصينة.

والتقية نوع درع تستخدم في النضال. وتأتي الكلمة من «الوقاية» بمعنى الحفظ والصيانة، فواجب الفرد النشط في النضال ليس فقط القضاء على الخصم المعادي، بل من واجبه أيضاً المحافظة على نفسه وعلى طاقاته قدر الإمكان. فالتقية تعني إنزال أكبر الضربات بالعدو وتوقي أكثر الضربات الموجهة من العدو، وفي كل الحالات فإن التقية تكتيك عقلائي في النضال.

ولكننا نلاحظ اليوم أن هذه الكلمة قد فقدت مفهومها الأصيل لدي بعض الناس، وأصبحت تحمل مضموناً مضاداً للنضال، فمن وجهة نظر هؤلاء القاعدين فإن التقية تعني الانسحاب من ساحة المواجهة وترك المعركة لمصلحة العدو، والاشتغال من جهة أخرى بالجدليات الفارغة والمناقشات الجوفاء(15).

المسلم وضرورة الصدق والصراحة

لو طرق أحدنا باب بيت صديق له دون موعد مسبق، وكان صاحب البيت موجوداً، إلا انه بدل أن يقول له: تفضّل وادخل، قال له: «أرجوك، عُد من حيث أتيت، لأنني لا استطيع أن استقبلك الان» فماذا عليه أن يفعل في مثل هذه الحالة؟ القرآن الكريم يقول لنا بصراحة: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْ﴾. إن هذا التعليم القرآني ينطوي على مبدأ تقدمي إنساني أكثر مما هو موجود في حياتنا اليومية المعاصرة.

فالقرآن هنا يطالبنا بأن لانكون خجولين بلا سبب، وأن لانكون رقيقي النفس بحيث نتألم من أدنى مواجهة اجتماعية؛ فإذا أردت الذهاب إلى بيت شخص بدعوة مسبقة أو بموعد سابق فلك ذلك، أما إذا طرقت باب أحد دون إعلام مسبق فهذا يعني أنك تستأذن صاحب البيت في الدخول، فإذا كان صاحب البيت في حالة لاتسمح له باستقبال أحد في هذا الوقت عليه أن

(15) مطهري، علل گرايش به ماديگري [الدوافع نحو المادية]، ص215 و216.

يصرِّح بذلك دون خجل، عليه أن يقول إنني موجود في البيت ولكنني مشغول الآن ولا أستطيع استقبالك (ويحدث أحياناً أن يكون صاحب البيت مشغولاً بعمل مهم بينما القادم لا عمل مهم لديه) إنك لم تأتِ باتفاق مسبق، فارجوك أن ترجع وتزورني في وقت آخر، عليه أن يقول هذه الكلمات بصراحة، وإذا ما أباح صاحب البيت بما في قلبه بصراحة، على الطرف الآخر أن يمتلك الشجاعة والشهامة والرجولة الكافية لتقبل هذه الصراحة دون أي انزعاج.

هذا هو الادب القرآني، ولكننا نجد انفسنا اليوم على العكس من ذلك، فلا صاحب البيت يمتلك الشهامة والصراحة والمصداقية التي تؤهله للاعتذار عن استقبال الضيف غير المدعو، ولا الضيف القادم دون موعد مسبق يتمتع بالإنسانية الكافية التي تجعله يستقبل اعتذار صاحب البيت دون انزعاج، ولذلك فإن هناك في مجتمعنا إحدى ثلاث حالات في مواجهة مثل هذا الموقف:

الحالة الاولى: هي ان يوعز صاحب البيت لأبنائه ـ مثلاً ـ أن يقولوا للقادم كذباً بأنه ليس موجوداً في البيت، وواضح أن الكذب معصية كبيرة.

الحالة الثانية: أن يستقبل صاحب البيت ضيفه المفاجئ، ويمطره بكلمات الترحاب ظاهراً، بينما يمتلئ انزعاجاً واستياءً في الباطن، لانه ضايقه في وقت عمله، ثم بعد ذهاب الضيف يكيل له السباب والشتائم أمام أهله وأطفاله، ولك أن تتصور الآثار السلبية لهذا السلوك على الاطفال الذين يشاهدون والدهم لايمتلك الشجاعة الكافية لكي يعتذر عن استقبال الضيف المفاجئ ويتظاهر له بالترحاب والاستقبال الحار، إلا أنه يكيل له السباب والشتائم بعد مغادرته.

الحالة الثالثة: أن يكون صاحب البيت صادقاً مع نفسه ومع ضيفه وذلك بأن يأتيه عند الباب ويعتذر له عن استقباله في هذا الوقت لأن لديه أعمال ضرورية الان، أو يبعث إليه شخصاً آخر يعتذر له، وهذا هو الموقف السليم من صاحب البيت، ولكن الضيف قد ينزعج لانه سيئ الأخلاق، فيشيع هنا وهناك بأنه ذهب إلى بيت فلان إلا أنه لم يستقبله، دون أن يقول إنه ذهب

على غير موعد وتنسيق مسبق، وأن صاحب البيت لم يستقبله لانه كان مشغولاً بعمل ضروري، بينما الموقف السليم من الضيف هو قبول عذر صاحب البيت وتقدير تعامله مع الموقف لأنه كان شخصاً شجاعاً صارحه بالحقيقة دون أن يكذب ويراوغ عليه.

هذه هي الحالات السائدة اليوم بين الناس

لكن هناك حالة رابعة هي التي يحبذها الإسلام ولكنها غير سائدة في مجتمعاتنا، وهي أن يعتذر صاحب البيت بصراحة عن استقبال الضيف القادم على غير موعد مسبق إذا كان معذوراً فعلاً عن الاستقبال والاستضافة، وعلى الضيف أن يعود دون أدنى انزعاج أو مضايقة. ونقرأ معاً في سورة النور (27 و28) هذا الأدب القرآني:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

من وراء إشاعة الفساد في المجتمع

تعتبر إشاعة الفاحشة والفساد بين الناس من الذنوب الكبيرة التي أنذر القرآن صاحبها وبشّره بعذاب أليم. [تقول الآية 19 من سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾]. فهناك من يقوم عملياً بإشاعة الفساد في المجتمع إما لأغراض مادية، وإما لأهداف أخرى، وغالباً ما تكون هذه الأهداف في عصرنا الحاضر أهدافاً استعمارية. فهم يريدون انتشار الفساد والفاحشة بين أبناء المجتمع، لانه لاشيء يحطم ارادة الناس وعزائمهم كالفساد الاخلاقي. فلو أردت حرف اهتمامات الشباب في البلاد عن الأمور الجدية التي تهدد المصالح الاستعمارية، فإن الطريق إلى ذلك هو زيادة ومضاعفة محلات بيع الخمور، والمراقص، ونساء الفسق والفجور، ومجالات الاختلاط الماجن بين الشباب والشابات. إن الخلاعة والفساد الاخلاقي يؤديان ـ تماماً كما

الهيروويين وسائر المواد المخدرة ـ إلى إنهاك القوى الجسمية والمعنوية للشباب، وإضعاف إرادة الناس واستلابها، والقضاء على صفات الرجولة والإحساس بالشرف والكرامة.

إن الأميركيين يخططون لإفساد العالم وخطتهم الأساسية في ذلك: أكثروا الفساد في الناس لكي يطمئن بالكم. يُقال إن مدير إحدى المجلات الاسبوعية كتب في العدد الاخير[16] من مجلته يقول: «سوف نعمل ـ خلال السنوات العشر القادمة ـ على أن لا تبقى في طهران بنت بكر وهي في ربيعها العاشر». إن هذه الأمور تأتي حسب خطة مدروسة، وهنا نعرف لماذا يؤكد الإسلام على مسألة العفة بدرجة كبيرة. إن فلسفة العفاف ـ في أحد أبعاده ـ هي أن العفاف يحافظ على مخزون الطاقات الإنسانية في وجود المجتمع، ربما لاتصدقون بأن الميوعة الاخلاقية والسلوكيات الفاسدة تنهك ارادة الإنسان، ولكن هذه هي الحقيقة[17].

كيف نواجه الشائعات؟

لو سمع أحدنا شخصاً يتحدث بسوء عن شخص آخر أو عن مؤسسة ما فما هو الموقف السليم؟ هل يجب عليه اللجوء إلى الصمت؟ أم يجب أن يقول في نفسه: نحن لانعرف الحقيقة، والله العالم؟ أنا لا أعرف شيئاً.. ربما كان الأمر كما يقولون، وقد لا يكون؟ أم عليه أن ينقل ما سمعه في المجالس ويقول: قيل كذا وكذا؟ ماهو الموقف السليم؟

الموقف السليم هو أنه مالم يثبت الأمر ببيّنة شرعية، ومالم تثبت صحته لنا شرعاً فإن واجبنا أن نكذّب القول. الا إذا ثبت ذلك شرعاً بما يورث فينا العلم واليقين. فمثلاً: البيّنة الشرعية لإثبات الزنا هي شهادة أربعة عدول، وشهادة عادلين في غير الزنا، أو المشاهدة شخصياً، أو سماع كلام معَيّن مباشرة، في هذه الحالات فقط يختلف الموقف. أما ما لم يثبت الشيء ببيّنة

---

(16) في عام 1970م.

(17) المصدر السابق، ج4، ص49 و50.

شرعية، فإنه لايحق لنا نقله هنا وهناك، كما لا يحق لنا أن نقول: «لاندري» أو نقول: «ربما كان وربما لم يكن» ولايحق لنا اللجوء إلى الصمت، بل واجبنا أن نكذِّب ذلك. أما إذا ثبت ذلك الشيء الذي تتداوله الألسن فإن الواجب يختلف، هنا تجب علينا مكافحة السوء. وبالطبع فإن المسؤولية تختلف حسب اختلاف الحالات، ففي بعضها تجب علينا المكافحة، وفي حالات أخري تقع المسؤولية على عاتق الحاكم الشرعي (كحالة الزنا مثلاً). وفي هذا المجال نقرأ آيات الذكر الحكيم:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[18] [النور: 14-17].

هناك بعض الناس ـ كما يقرر علم النفس الحديث ـ يعاني من عقد نفسية. فهو يحسد الآخرين على ما أوتوا من وجاهة اجتماعية، ولانه عاجز عن اللحاق بهم واكتساب شخصية اجتماعية مثلهم، لذلك يقرر المبادرة إلى اختلاق شائعات حول تلك الشخصيات، فمنطقه هو: مادمت لا أستطيع اللحاق بهؤلاء فلا عمل لديّ سوى تحطيم شخصياتهم. ولكن كيف يتحقق ذلك؟ بالقيام بعمل في منتهي الخسّة والدناءة هو اختلاق التهم وإشاعتها حول تلك الشخصيات، وهذه معصية كبيرة جدّاً لايعلم مداها الا الله عز وجل. ولنستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يحدثنا عن هذه المعصية:

جاء في الحديث؛ خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. فقال ﷺ: الذي يمنع رفده، ويضرب عبده، ويتزوّد وحده. فظنّوا أن الله لم يخلق خلقاً هو شر من هذا. ثم قال: ألا أُخبركم بمن هو شر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الذي لايُرجئ خيره ولا يؤمن شره. فظنوا أن الله لم يخلق خلقاً هو شر من هذا. ثم قال: ألا أخبركم بمن هو شر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال:

(18) المصدر السابق، ج4، ص40-41.

المتفحِّش اللّعّان[19] الذي إذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم، وإذا ذكروه لعنوه»[20]. وهنا توقف الرسول ﷺ ويعني هذا أنه لايوجد شرٌّ من هؤلاء[21].

تغيير الذات أولاً

نحن نشكو ونئن ونتساءل لماذا حفنة من اليهود الذين يلعبون دور الشرطي الأميركي، يفرضون سلطتهم العسكرية والسياسية والفكرية والاقتصادية على سبعمائة مليون مسلم؟. ولماذا ينهزم مئة مليون عربي في حرب حزيران 1967؟ لماذا لايعطي الله العزّة للمسلمين؟ لماذا لايوجه قوانين الطبيعة لمصلحة المسلمين؟ نطرح هذه التساؤلات ونغضب، نسهر الليالي بسبب هذه الهموم، نتألم، ونتأوه، وندعو ونستغيث، ولكن دون ان نلمس الاستجابة. لماذا؟ نجد الجواب على كل ذلك في آيات الذكر الحكيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: 11].

فالله عزوجل لايغيِّر سنّته، إنما نحن الذين يجب أن نغيّر أنفسنا. فنحن غارقون في الجهل، ومنهمكون في المفاسد الاخلاقية، مالنا من الاتحاد والاتفاق أي نصيب، ومع ذلك نتوقع أن ينصرنا الله ويعيننا. إننا نختلق آلاف الإشاعات الكاذبة حول أيّة حادثة صغيرة، وقد جعلنا الكذب واللامصداقية منهج حياتنا، كما اعلنّا البراءة من كل فضيلة وانفصلنا عنها، ومع ذلك نتوقع أن تكون لنا السيادة على العالم. إن هذا أمر لن يكون[22].

---

(19) التفحُّش: المبالغة في الفحش وسوء القول. واللعّان: المبالغة في اللعن وهو لو صدر من الله يعني: الطرد والابعاد من الرحمة، ولو صدر من الخلق يعني: السّب والدعاء على الغير. (المترجم).

(20) المجلسي، بحار الانوار، ج69، باب مساوي الاخلاق، ص107.

(21) مطهري، آشنايى با قرآن [التعرف على القرآن)]، ج4، ص51 و52.

(22) مطهري، عدل الهى [العدل الالهي]، ص127-128.

الثورة الإسلامية: بين العدالة والقضايا الروحية؟

كما نطرح بقوة مسألة العدالة في مجتمعنا المستقبلي، كذلك ينبغي أن نطرح مسألة المعنويات والقضايا الروحية بنفس الدرجة من القوة.

وللأسف، فإن المجتمعات البشرية تتأرجح عادة بين حالتي الإفراط والتفريط، وقلّما تسلك طريق الاعتدال والتوازن. وفي مجتمعنا نحن إذا لاحظنا الخطب والكتابات خلال الخمسين عاماً الماضية، لوجدناها قد تطرّقت كثيراً للجوانب المعنوية والروحية، إلا أنها إما أهملت التحدث عن العدالة أو تحدثت عنها قليلاً جدّاً. أما الآن حيث يشهد المجتمع تطوراً وتحوّلاً نجد الكثير من الحديث عن العدالة، بينما يتضاءل الحديث عن الجانب المعنوي، وكأنها تقليعة عصرية، إذ الحديث عن الجوانب الروحية والمعنوية يُعتبر موقفاً لا ثورياً. كلا، ليست الثورة الإسلامية هكذا. إننا لو أهملنا الجانب المعنوي، نكون قد سلبنا ثورتنا عاملاً من عوامل التقدم.

وللأسف يُلاحظ أحياناً إن بعض الكتابات المعاصرة، وبعض محاولات تفسير القرآن، تفسِّر كل الجوانب المعنوية بتفسيرات مادية، وهم يحسبون ـ بعملهم هذا ـ أنهم يؤسسون ثقافة ثورية للإسلام.

نحن نجد أن القرآن يشير تكراراً إلى الآخرة والقيامة، ولاشك أن المقصود بهاتين الكلمتين كلما ذُكرتا في القرآن أن هناك عالَمٌ آخر بعد هذه الدنيا التي نعيش فيها. ولكن يبدو أن هؤلاء السادة يرون أن ذكر عالَم آخر في القرآن يشكل نقطة ضعف لكتاب الله عز وجل، لذلك فهم يفسرون كلمة الآخرة كلما وردت في القرآن بأن معناها المصير والنهاية، نهاية أي عمل، ومصير أي نضال. إن هؤلاء يريدون زعزعة الدعائم المعنوية في القرآن، وهم يركزون تفكيرهم ـ وللأسف ـ على مسألة العدالة فقط، متصورين إمكانية تحقيق العدالة دون المعنويات، ولكن من الواضح؛ أولاً إن الجوانب المعنوية في القرآن غير قابلة للتأويل والتفسير؛ وثانياً إن جناح العدالة لايستطيع فعل شيء دون جناح المعنويات.

ومن المنظار القرآني فإن المعنويات تشكل قاعدة التكامل. ان هذه

المجموعة الكبيرة من العبادات التي يؤكد عليها الإسلام إنما هي بهدف تقوية الجانب المعنوي لروح الإنسان. انظروا إلى حياة الرسول ﷺ، فبالرغم من كل المشاكل والاهتمامات التي كان يواجهها نجد أن القرآن يخاطبه فيما يرتبط بعبادته قائلاً:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ . . .﴾ [المزمل: 20].

أو أن الله يخاطب نبيّه بقوله سبحانه:

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79].

وبالنسبة إلى الإمام علي عليه السلام إذا كنا نلاحظ عدالته الاجتماعية وعمله اليدوي وكدحه الشخصي، فإن علينا أيضاً ملاحظة تهجّده وعبادته في منتصف الليل، وكيف أن الاغماء يعتريه من شدة الخوف من الله. هذه هي حقائق التاريخ الإسلامي، وتلك آيات صريحة من القرآن. فليس من الممكن تأويل هذه الأمور وتبريرها. إن أي تفسير مادي لهذه الأمور يُعتبر خيانة بحق القرآن الكريم. إن ثورتنا تحتاج في مستقبلها إلى جانب العدالة الاجتماعية حسب المقاييس الإسلامية، إلى مساحات واسعة وشاملة من المعنويات المماثلة للنماذج التي نشاهدها في حياة رسول الله ﷺ، والأئمة من أهل بيته عليهم السلام[23].

(23) مطهري، پيرامون انقلاب اسلامي [مقالات حول الثورة الإسلامية]، ص173-175.